

149636 - لماذا تأخرت حضارة المسلمين ؟

السؤال

نحن في زماننا هذا نلاحظ أن الغرب متقدمون علينا بالكثير من الأشياء ، ويقول الله عز وجل : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) البقرة/47.

فهل هذه النعم الكثيرة التي أنعم الله بها على ذرية يعقوب في زمانهم انقطعت ، أم ما زالت متواصلة إلى يوم القيمة ، وإذا انقطعت فلماذا هم متقدمون علينا في هذه الأرض ، وفي هذا الزمان بالعديد من الأشياء ، ونحن العرب ماذا ينقصنا أو يشغلنا لكي نكون خيراً منهم في تفكيرنا وابتكارنا واحتراعنا وصناعتنا ؟ بارك الله فيكم .

الإجابة المفصلة

من غير الموضوعي أن يختزل الناظر أسباب التخلف الحضاري لأمة من الأمم من خلال الوقوف على بعض مظاهر التخلف التي يراها كل أحد ؛ لأن التقدم الحضاري عملية دفع هائلة لعجلة الحياة ، يساهم في تحريكها أعداد لا حصر لها من العوامل ، والمتداخلات ، التي تتراءكم عبر السنين ، وتتغلغل في جميع تشعبات الحياة وتفاصيلها ، ترفع من سوية المجتمعات شيئاً فشيئاً ، ولا يكاد البشر يشعرون بمراحلها لأنها كضوء الفجر ، لا يزال ينبعث حتى ينتشر ضياؤه في الآفاق .

لقد أخبرنا القرآن الكريم عن شيء من مظاهر التقدم المادي التي كانت - وما زالت - محل ابتلاء وفتنة لا يعلم عظيم حكمتها ، وكثير أثرها في حركة التاريخ إلا الله سبحانه وتعالى .

يقول الله عز وجل : (وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الْتَّارِيْخِ أَذْهَبُتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاةِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُدُونَ) الأحقاف/20

ويقول سبحانه وتعالى : (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءُنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفَسُهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهِزُونَ) الروم/9-10.

يقول العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله :

" قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكي أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكم لهم بعزة النفس وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم ، وإعانتها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوزات والموبدانات الروحي والعقلي ، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة ، وإحياء العلوم والفنون الميتة ، وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الأرض ، حتى قال الدكتور غوستاف لوبيون المؤرخ الاجتماعي الشهير : إن ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال ، أولها جيل التقليد ، وثانيها جيل الخضرمة ، وثالثها جيل الاستقلال والاجتهداد - قال : إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدأوا فيه بمزاولتها .

وأقول : إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر، واحتقار التقليد، وتوطين أنفسهم على إماماً البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً، وقد خفي كل هذا على سلائهما بعد ذهاب الخلافة الإسلامية وزوال النهضة العربية، وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الطواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن " انتهى .

" تفسير المنار " (11/173)

ونحن لا ننكر أثر التآمر الداخلي والخارجي على أمتنا ، عبر سنوات طويلة ، حتى سبقها أعداؤها في ميادين الحياة المادية ، ولكننا نربأ بفكرنا وفكرة أمتنا أن ينصب بروح الهزيمة ، ويتوافق في تحقيق النهضة ، ويتحاذل أمام هذه المسؤولية العظيمة ، مسؤولية رياضة الأمم .

أما أعداؤنا من بني إسرائيل فقد أحسنوا استغلال الفرص ، واجتهدوا في صنع الأحداث المؤثرة ، وعملوا بشكل دؤوب عشرات السنين حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، ودارت لهم الكفة في هذا الزمان ، إلا أنه لا علاقة لذلك بقوله عز وجل : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) البقرة/47؛ لأنها تتحدث عن نعم سابقة أنعم بها عز وجل على بني إسرائيل عبر التاريخ ، يريد عز وجل أن يذكرهم بها ، من هذه النعم ما جاء في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيْكُمْ أَبْيَاءً وَجَعَلَكُمْ مُلُوْكًا وَأَتَكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) المائدة/20.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله :

" يذكرونهم تعالى سالفاً نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم " انتهى .

" تفسير القرآن العظيم " (1/255)

ومع ذلك فنحن نقرأ واقعنا المعاصر بقراءة متفايرة ، قراءة تدفع نحو المزيد من التقدم والنجاح ، والمزيد من الأخذ بالأسباب الدينية والدينوية ، أساسها الفرد الصالح الذي يرافق الله عز وجل في كل شأنه ، ويكون لبنة بناء وإصلاح في مجتمعه وأسرته ، لا ينتظر أن تقدم له النهضة على طبق من ذهب ، ولا يرجو أن توضع له البرامج لتحقيق ذلك ، بل يبادر إلى كل ما فيه نفع وخير وهو موقن أن الله سبحانه وتعالى يبارك في القليل ، وسيجزي كل محسن بإحسانه ، وهو عز وجل يعلم المفسد من المصلح ، وسينصر أتباع رسالته إذا هم أخذوا بأسباب النصر والتقدم ، يقول سبحانه وتعالى : (وَقَدْ مَكَرُوهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُهُمْ لِتَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُحْلِفًا وَعِدَّهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقَامٍ) إبراهيم/46-47.

والله أعلم.